المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل الله ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فالحمد لله الذي خلق الإنسان من عدم وهداه وعلمه بالقلم وأرشده إلى ما لم يكن يعلم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأمم نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبعه من الأمم.

لقد وثب المسلمون ـ في ظل الإسلام بمعناه الصافي ـ وثبة عظيمة في قرن ونصف قرن ملأوا بها الأرض عزة ونوراً وعلماً وقوة وسيادة وحملوا راية الإسلام عالية خفاقة في كل بقاع الأرض ففي أي المدارس درج هؤلاء المسلمون؟ وما هي القوة الدافعة لتلك الوثبة العظيمة التي أخرجت لنا قمم شامخة في شتى المجالات.

لقد درج هؤلاء المسلمون في بيوت مسلمة فاضلة عرفت معنى الإسلام وعملت به وتعلمته وعلَّمته لصغارها، فصار الصغار علماء نشروا نور العلم في شتى بقاع الأرض ومغاربها، وهم ليسوا علماء فقط بل علماء عاملون بما علموا ظهرت في سيرتهم صورة الإسلام الناصعة التي لا نراها بكثرة هذه الأيام بل نجدها صورة مشوهة، فكم شوه كثير من المسلمين اليوم بسلوكهم وتصرفاتهم من صورة الإسلام الناصعة الصافية، وإننا إذا ما بحثنا عنها في صفوف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم فقلما نجدها عندهم صحيحة كاملة أو صافية نقية، بل نراها جسماً بلا روح أو روحاً ضعيفة لا تقوى على حمل معاني الإسلام إلى غيرها، وإذا ما فتشنا عنها في صفوف كثير من الدعاة العاملين وجدتها فكرة نظرية أكثر منها حركة وسلوكاً لا تتجاوز القول ولا تؤثر

في السلوك، لهذا كله أصبحت صورة الإسلام هذه الأيام في قلوب أبنائه غامضة أو مشوهة ناقصة وأصبحت الصورة الناصعة حبيسة الصفحات وفي طيات المجلدات، ولذلك كله أردت أن ألقي الضوء على هذه الصفحات ليظهر من خلالها نور العلماء العاملين الذين تربوا في ظل الإسلام علماً وعملاً فهم كما قال رسول الله ﷺ كالأرض الطيبة قال النبي ﷺ: **«مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قَبِلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادِب أَمْسَكَت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان(*) لا تمسك ماء ولا تَنْبُت كلأ فذلك مَثَلُ من فَقِه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعَلَّم ومَثَل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلتُ به»**(١).

جاء في شرح الحديث: «إن الفقهاء وأولو الفهم كمثل البقاع التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ لأنهم عَلِمُوا وفَهِموا وقَرَّعوا وعَلَّموا، وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يُرزقوا الفقه والفهم أنهم كمثل الأجادب التي حَفِظَت الماء فانتفع بما عندهم، وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا فهم العوام الجهلة»(٢).

(*) قيعان: جمع قاع وهي الأرض التي لا نبات بها.

(١) البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) ك الفضائل عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص١٨.

وهكذا أردت أن نقطف بعض الثمار من تلك الأرض الطيبة، نرى في كل ثمرة عالم رباني ملأ الأرض بعلمه نوراً وهدى ولكنه ليس أي عالم وإنما هو عالم صنعته المرأة المسلمة، تلك المرأة التي أقامها الله على نشئه واستخلفها على صنائعه وائتمنها على دعاة حقه، فكانت أقوم خُلفائِه بواجبه وأنهضهم بالفادح من المسؤولية تلك المسؤولية التي تتمثل في تربية هذا الجيل الفريد الذي صنعته نساء مسلمات.

فنحن إذا قلبنا صفحات تاريخ الإسلام عبر عصوره المختلفة فلا نكاد نقف على عظيم ممن زلت لهم النواصي، أو عالماً استنارت بعلمه القلوب والعقول إلا وينزع بعرقه وخُلُقه إلى أُمٍّ عظيمة صنعت من وليدها رجلاً عالماً ليكون لها بعلمه وصلاحه امتداداً لعمرها القصير عملاً بقوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء، صدقه جارية أو علم يُنتفعُ به بعده أو ولد صالح يدعو له**»[1] فلقد غَرَس الإسلام في نفس المرأة المسلمة عبر العصور المختلفة التطلع للآخرة، وأن تجعل من الدنيا مزرعةً لها فتجتهد في تربية صغارها تربية إسلامية تجعلهم جنوداً يحملون الإسلام في قلوبهم وينشرون نوره في القلوب والعقول. فالعلم كالماء فيه حياة القلوب، وبالعلم ينال الناس الخير والحياة والنور كما سبق في حديث النبي ﷺ، ولقد صنعت المرأة المسلمة أمّاً

(١) مسلم (١٦٣١) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٨) والترمذي (١٣٧٦).

وأختاً وزوجة علماء عاملين تعلو بذكر سيرتهم الهمة ويزداد العزم على العودة بالأمة الإسلامية إلى مكانتها القيادية عَبْر العصور، في كل مجالات الحياة وخاصة مجال العلم الرباني الذي يُخرج الله بنوره البشر من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراطه المستقيم.

فهؤلاء النساء اللاتي صنعن أمثال البخاري والشافعي لم يذكرهن التاريخ بأسمائهن في كل المصادر التي بين أيدينا، ولكن ظهرت شخصياتهن واضحة جليّة في شخصية أولادهن العلماء الذين كانت لهم تلك النساء قوة دافعة لطلب العلم والتضحية في سبيل نصرة الإسلام ونشر نوره عبر الآفاق، وعبر هذه الرسالة نجد الأم المسلمة تدفع بابنها إلى حلقات العلم دفعاً وكأنها ساحة جهاد، ونجدها تقول له كلمات خالدة سجَّلها لنا التاريخ عبر صفحاته، فمع هذه الكلمات المضيئة يظهر دور الأم المسلمة في إعلاء همة الشباب لحمل راية الإسلام وإظهار صورته الشفافة النقية من خلال سيرة العلماء العطرة التي تفوح بنبض الإسلام وعطره.

ولهذا فسوف أتناول شخصيات العلماء اللاتي صنعتهم النساء بشيء من التفصيل، لعلي أساهم في رفع همة الشباب وأوجه أخواتي المسلمات إلى هذه الصناعة ـ صناعة العلماء ـ الذين هم ورثة الأنبياء. ولن ألتزم في رسالتي بالترتيب التاريخي في عرضي لسيرة العلماء الربانيين بل نسير مع كل شخصية تظهر لنا فيها دور المرأة المسلمة بصورة قوية في دفع العالم إلى طلب

العلم، لنُظهِر بذلك دور المرأة المسلمة في صناعة العلماء، فالأم المسلمة كما صنعت أبطالاً في ساحات الجهاد، صنعت أيضاً علماءً في ساحات بيوت الرحمن وفي ساحات العلم الذي يُعلى من شأن صاحبه، ويرفع ذكره في بقاع الأرض، فيصير حامل العلم إماماً للهدى تُسطّر سيرته بمداد من نور عبر صفحات التاريخ، ويصير المرء بعلمه قمة شامخة يرنو إليها كل من يبحث عن القدوة الحسنة وصدق من قال: [البسيط]

والعلم زينٌ وتشريفٌ لصاحبه أ
أتت إلينا بذا الأنباء والكتب
والعلم يرفع أقواماً بلا حسب
فكيف من كان ذا علم له حسب
فاطلب بعلمك وجه الله محتسباً
فما سوى العلم فهو اللهو واللعب

وكما كان من بين هؤلاء من رفع العلم شأنه، فسوف تقف في هذا الكتاب مع النساء العالمات اللاتي صنعت العلماء بتدريسهم العلم وروايتهم الأحاديث النبوية التي أحْيَوْ بها القلوب، ونشروا بها سنة المصطفىﷺ، فكنّ معلمات للخير، صانعات للعلماء. فمع العلماء الذين صنعتهم نساء، ومع النساء اللاتي صنعن علماء نعيش عبر تلك الصفحات مع تلك الكوكبة لتعود لساحة الإسلام أمجاده، ولنحث الشباب والشابات على طلب العلم الذي هو خير كنز وخير ما يجمعه المرء في عمره.

وصدق من قال: [الطويل]

العلم زينٌ كنزٌ لا تفاد له
نعم القرين إذا ما عاقلاً صحبا
قد يجمع المرء مالاً ثم يُسلبه
عما قليل فيلق الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً
فلا يحاذر فوتاً لا ولا هربا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه
لا تعدلن به درأ ولا ذهباً

فهيا معي أختي المسلمة إلى صانعات العلماء تسير مع سيرتهن وسيرة العلماء. فيها الحياة للقلوب وفيها اليقظة وعلو الهمة وفيها النور الذي يشع من أمهات الكتب. وسوف نعيش مع هذا النور عبر كتابنا «نساء صنعن علماء» لعل الله أن يمنحنا همة عالياً للنيل من هذا النور:

لو أن العلم مُثِّل كان نوراً
يضاهي الشمس أو يحكى النهارا
لذاك الجهل أظلم جانباه
ونور العلم أشرق واستنارا[1]

فمع العلم والعلماء ومع خير النساء «نساء صنعن علماء».

أختكم: أم إسراء وسارة وأسماء وسلمى

(١) الأبيات من بحر الوافر.